دراسات فى الفن

مع هـــذه الأجسام

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— إسمعى ! إذا كنت تريدين زوجاً صالحاً فعليك بهذا الشاب الذى مر الآن ونظر

— أيهم ؟ فهم كُثر ، الذين مروا ونظروا

— نعم هم كثر ، ولكنه هو واحد ، وقد عرفك وأنت عرفتيه ، وقد حياك وأنت حييته ... فلم التجاهل ؟

— أأنا حييت أحداً الآن وحياني ؟ متى كان ذلك ؟ وكيف كان ؟

— زعموا أن آنسة كانت جالسة على قارعة الطريق فى مقعد وكان معها دلو ...

— دلو ؟

— أى نعم ... بمعنى رجل ... وهو عند المرأة هكذا لأنها تلق به حيث شاءت ، وتملؤه بما يطيب لها ، و « تدقه » أينما أرادت ، وتأخذ منه كل ما يحتويه فتختص به نفسها أو توزع منه على من تحب ... فإذا انتقب رقعته ، فإذا انكسر جبرته ، فإذا تحطم حرقته واستدفأت بحطامه ...

— يالله من ثأر بينك وبين المرأة ...

— أنا ؟ أنا ما بلغت إلى اليوم منزلة الدلو ... ومهما أكن فلن أزيد على لوح من ألواحه فلا يمكن أن يكون بيننا ثأر

— يا للفضيحة ... ما علينا ... أتمم قصتك ...

— ... وكان الدلو يتحدث إلى الآنسة بكلام تافه سخيف لا غناء فيه لأنه يدور حول أسرار الوجود ...

— وهل يقال عن الحديث الذى يدور حول أسرار الوجود إنه تافه سخيف ؟ فما الحديث الجليل الخطير ؟

— هو عندكن ما يدور حول هذه الجثث التى هى أنتن ، وحول هذه الخرق و « الهلاهيل » التى هى ثيابكن أو دروعكن وما أشد التباين بينها وبين دروع الرجال ، فهم يتدرعون بما يقيهم الهجمات ، وأنتن — يا ويلى منكن — دروعكن مغانم ومطامع تكشفها كشفاً ، وتظهرنها عمداً ليسهل افتراسكن على الجرذ الضئيل كما يسهل على الأسد الضرغام

— يا أخى ! أما تُتم قصتك وتدع هذه الهاترات ...

— فلندعها ... ومر بالآنسة وصاحبها ... آخر ... عريض المنكبين متين الألواح ... طفت رجولته على جلده ولم يعد منها شيء فى داخل نفسه . فلما رأى الآنسة ، تجمعت قواه فى عينيه ، ثم انبثقت هذه القوة تياراً ، وانطلق التيار جارفاً قوياً ، فصدم الآنسة فى عينيها ، وفيما بين عينيها ، وفيما حول عينيها ، فألمها الصدمة ، فرفعت يدها إلى رأسها تحول بين رأسها وبين هذا التيار الذى لو ثقل عليها لتراخت وتخاذلت وتساقطت ، ولتحسس بيدها أيضاً مكان الصدمة تختبرها وتتعرف مداها ، كما نصنع دائماً عند كل صدمة ، ولكنها فطنت إلى أنها بين جماعة من الناس قد يكون فيهم من يتتبع حركاتها ، فمررت يدها سريعاً من جبهتها إلى شعرها حتى يظن الذى يراها أنها إنما رفعت يدها لتصلح من شعرها ، لا لتتقى تياراً ، ولا لتشد أعصابها ... وجازت هذه الحركة على كل من رأوها ... وصاحبها أولهم

— وما لنا نحن وهذه الحكاية ؟

— هذه الحكاية حدث الآن ما يشبهها ، وكل ما فى الأمر أنى أردت ألا تفوت من غير أن ألفتك إليها لعلك تستغلينها ، وتربطين إليك بسبب صاحبك هذا الذى مر ، وهو فيما يظهر ممتلئ ... رجولة وغروراً ، ومالاً أيضاً ...

— ولكن هذا أجنبى

— إذن فانتظرى الذى ليس أجنبياً ، والذى يؤثر فيك هذا التأثير ، واعلمى أنه هو الأهل لك

— ولكن رجالاً كثيرين ... كثيرين جداً يفضلون السحلب على « المغات » ...

— نعم لأن الكاكاو أطيب طعماً من جوز الهند

— عدنا إلى الخلط ؟

— لقد مشيت معك ... كنا نتحدث عن الرجال والنساء فانتقلت أنت إلى المطارة ، فآثرت أن أجاملك وأن أمضي معك حيثما تريدين . . . فهل نعود إلى ما كنا فيه وتقولين لي مالهم الرجال الكثيرون الذين كنت تريدين أن تتحدثي عنهم . . . أو الأحسن أن ندعهم ونتحدث في الحمص وغزل البنات ؟ مالهم الرجال الكثيرون ... مالهم ؟

— فأنت مصر على أن تهتك نفسي ؟

— مهتوكة يا آنستي نفسك وكل نفس ما دامت الأنفس في الأجسام !

— إذن ، فليست الأجسام حجباً كما قلت مرات ؟

— إنها حجب ، وليست حجباً ، كالنور يبصر فيه البلبل ويعشى فيه الخفاش ...

— أو كالظلمة تبصر فيها البومة ويعمى فيها الطاووس ... فهل أنت طاووس أو أنت بومة ؟

— ولم لا أكون البلبل وأنت الخفاش ؟

— لم أعمك يوماً تصدح ...

— لأنك تسهرين الليل وتنامين النهار ... عيناك لها الظلام ونفسك اطمأنت للسواد !

— قسمتي !

— ولماذا ترضين هذه القسمة وهي مما لم يكتبه الله على الناس فما كتب على المبصرين العمى ، ولكنهم هم الذين يضعون أصابعهم في أعينهم كمن يخشى أن يرى ، وكمن يحب أن تزل قدمه ليسقط فينهار ! افتحي عينيك ، وانظري ، وابصري ، وافهمي ، والله لا يتعاطى من عبيده أجراً على ما يعلمهم ، ولا هو يتقاضاهم رسوم الأتعاب .

— وماذا تريد مني أن أفعل ؟

— ترقبي حركاتك ، وترقبي دوافعها في نفسك ، ثم ترقبي حركات الناس ، تعرفي دوافعها في أنفسهم .

— وهل كل الناس يتشابهون ؟

— من غير شك ، هم يتشابهون في مقومات الإنسانية وأصولها كما تتشابه الأسود في مقومات « الأسدية » ، وكما تتشابه الأبقار في أصول « البقرية » ... وكل ما بين أفراد الناس من خلاف ، فإنما يتناول الفضول والزوائد ولا يتعداها ، فالأمير إذا مات وحيده حزن وبكى ومسح دموعه في منديل ، والحقير إذا مات وحيده حزن وبكى ولكنه يمسح دموعه في ذيل ثوبه ، وكل من المنديل وذيل الثوب ، لا صلة له بالحزن ولا البكاء ... أنت تضحكين فتكتمين صوتك تحشما ، وأنا أضحك فأفزع الناس بقهقهة كالرعد ولكننا مع هذا نتساوى في أننا نضحك وإن كنت أنت تضحكين بقدر ، وأنا أضحك بكل القوة التي في القدر والقضاء . وبهذه المراقبة يا آنستي تستطيعين أن تفهمي الناس ، وتستطيعين بعد ذلك أن تكتبيهم أو تصوريهم أو تعزفيهم أو تغنيهم أو تلعبي بهم ما شاء لك الفن ... ولكن عليك — كما رأيت — أن تعرفي نفسك أولاً ، وأن تحكمي عليها بالحق دائماً مهما آلمك هذا الحكم ، وإذا كنت تكرهين الألم فحاولي أن تصلحي نفسك بالحق ، واحذري أن تخدعيها بالباطل لأن الباطل يتلفها فلا تعود تصلح مقياساً للحق الذي تنشدينه ، فالحق مستقيم ، ولا يقيسه إلا ما استقام ، ولا يمكن أن يحصره حلزون ...

— وكيف نعرف الحق ؟

— الحق معروف ، هو ما فطر عليه الناس لا ما اصطنعوه ، الله خلق الخلق بالحق ... فالحق فيهم ، وهو إلى اليوم على رغم ما جاهدوه طويلاً لا يزال فيهم ، ونحن نعرفه في البشر بذبوعه بينهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم . فالموت حق لأنه يتناول الناس جميعاً ، والحب حق لأنه يتمكن من قلوبهم جميعاً ، والفن حق لأنهم يطربون له جميعاً ... هذا هو الحق ...

— هذا حسن . فكيف تريدني أن أبدأ في تفهم هذا النوع من الحق الذي تدعي حدوثه بين الأجسام ، والذي يخيل إلى أنك تجعله كتيار الكهرباء . أنظر مثلاً : هذا رجل ممتلئ رجولة ، هو أيضاً كذلك الذي رأيناه في البدء ، وهو ينظر إلى هذه السيدة ولكنها تتحسس رأسها من الخلف لا من الأمام ، فهل حركتها هذه هي أيضاً تدل على أن تياراً انبثق منه نحوها ، وأن هذا التيار أثر فيها إلى آخر هذه الدعاوى التي تدعيها . ليست المسألة إلا ارتباكاً فقط

— ما في الذي قلناه شك . وهل ما في الأمر أن هذه السيدة أنضج أنوثة من الآنسة الأولى التي هي أنت ، وعينها أشد تبجحاً من عينك ، وحيلتها أوسع من حيلتك ، وأعصابها أقوى من أعصابك ... لقد رفعت يدها لتمر بها على جبهتها مثلما صنعت أنت ، ولكنها أفاقت ويدها في منتصف الطريق فبدلاً من أن تضع يدها على موطن « النغزة » في جبينها لفت بيدها إلى قفاها... وهذه هي الدرجة الثالثة من درجات الصد

— وهل للصد درجات ... غير ما فعلتُ وما فعلتُ ؟

— نعم ... أولى درجاته هي ما يلجأ إليها الأطفال عند ما يهاجمهم مهاجم بعنيف نظراته ... فهم يرفعون أيديهم ويغطون

بها أعينهم ويمسكون بها رؤوسهم ، وهذه حركة من حركات الصد المكشوفة التي لا يلجأ إليها إلا الواثق من ضعفه ... وهي تشبه الجرى والهرب ... والدرجة الثانية هي هذه الحركة التي بدرت منك ، والدرجة الثالثة هي هذه الحركة التي بدرت من هذه السيدة ... والدرجة الرابعة هي الصد بالنظر ... تيار ضد طيار ... والفوز لمن غلب ، واستسل لمن أرخى عينيه ... ومن الناس مخادعون ... يريد الواحد منهم عند الهجمة أن يغطى عينيه أو أن يغطى رأسه ؛ فإذا رفع يده خشى أن ينكشف فعبث بعنقه أو بأذنه أو بأنفه ... ألم تلحظى شيئاً من هذا ... وبهذه المناسبة أريد أن أسألك سؤالاً لعلك تجيبين عنه ... بعد ما استنار لك الطريق

— اسأل ... ولكن اجعل سؤالك خفيفاً فأنا لا أزال فى فى السنة الأولى معك ...

— ليتنى أبلغ السنة الأولى أنا ! إسمعى ، ألا تستطيعين بناء على ما تقدم أن تستنبطى للتحيات التى يتبادلها الناس منطقاً ؟...

— وماذا تقصد بالتحيات ؟

— التحيات . التحيات . رفع اليد إلى الرأس . أليست هذه تحيات ؟

— الناس يحيى بعضهم بعضاً لأنهم مؤدبون ، والصغير يبدأ الكبير ، لأنه مطالب باحترام الكبير ...

— ليس لى شأن بهذه المطالبات . إنما أنا أريد التحيات الطبيعية التى لا يلحظ الناس فيها الفروق الصناعية ... حتى فروق العمر والسن يجب أن تعلمى أنها ليست طبيعية فى هذا الصدد فهناك صغار نفوسهم أقوى من نفوس الكبار ... هأنذا وضعت لك الأساس

— وبهذا الأساس زدتنى اضطراباً ...

— لا بأس ... قوى وضعيف التقيا ... يرفع الضعيف يده إلى رأسه بالتحية فى هذا الزمن ، ولكنه فى الأصل كان يغطى عينيه ورأسه ... والكبير يرد عليه بعد ذلك من باب (جبر الخاطر) لأنه فى الواقع لم يشعر بالدافع الطبيعى الذى يحمله على أن يرفع يده إلى رأسه ... ويلتقى القويان فيرفع أحدهما يده إلى رأسه فى الوقت الذى يرفع الثانى يده فيه ... وهكذا يفعل الضعيفان . هذا هو منطق التحية الذى أطلبه ... والآن ... وبعد هذا المثل ... هل تستطيعين أن تستنبطى منطق التقبيل ؟

— وهل للتقبيل هو أيضاً منطق ؟ إن التقبيل استجابة لعاطفة ، والعواطف لا منطق لها ...

— من الذى قال لك هذا ؟... كل ما فى الطبيعة له منطق وقانون حتى المفاجآت والمصادفات ... وإن الذى تثر الكون فى هذا الفضاء وحفظه هذه الدهور وهذه العصور لا يمكن إلا أن يكون حكيماً له سنن هى الحكمة .. فكرى معى قليلاً ...

— طيب ! قل لى من أين أبدأ ؟

— من حيث تشائين . ابدئى بالقبلة التى يطبعها الأب على جبين الابن ... لماذا يختار لها الجبين ؟

— لماذا ؟

— ليعطيه شحنة من الكهرباء القوية فى هذا الموطن الذى هو أصلح مكان فى جسم الإنسان لاستقبال الكهرباء ... والجبين هو المكان الذى يسلطون عليه الكهرباء فى أجسام الذين يعدمونهم بها فى أمريكا ... أو هو المكان الرئيسى لهذا ...

— كأنه معقول ... والابن يقبل يد أبيه ... ثم إنه يضع يد أبيه على جبينه ... فلماذا ؟

— الابن يقبل يد أبيه فيمتص شحنة من كهرباء أبيه ، واليد من أطراف الإنسان التى تشع منها الكهرباء باستمرار وبسهولة ... والمنوم المغناطيسى يستعين بيديه على تنويم وسيطه إلى جانب القوة التى تنبعث من عينيه ... والابن يضع يد أبيه على جبينه لأن الجبين كما قلت لك من أطيب المواطن فى الجسم لاستقبال الكهرباء

— والأخوان ؟ يقبل كل منهما الآخر فى خده ، أو يمسح الواحد منهما وجهه فى وجه الآخر ...

— ذلك لأن المفروض فى الأخوين أن يكونا متساويين فى كمية الكهرباء التى شحن بها كل منهما ... فالواحد منهما لا يريد أن يكسب من الآخر شيئاً ، ولا أن يعطى الآخر شيئاً ولذلك فإنهما يلتفان كل منهما حول الآخر ولا يتعاطيان ...

— والعاشقان ؟ ... يتبادلان القبل من الشفاه

— لأنهما يريدان أن يتعادلا ... فمن كان منهما قوياً أعطى الآخر الفضل من قوته ... حتى يتم التعادل ...

— عجيبة ... ولكن غاب عنك شىء يا سيدنا ... إن القبل ليست شائعة بين البشر جميعاً ... وهى أقرب إلى العادات المكتسبة منها إلى الأفعال الطبيعية ...

— إذا كانت القبل على هذه الصورة التى نعرفها ليست شائعة بين البشر جميعاً ، فالذين لا يعرفونها من البشر قبل ولكن على صور أخرى ... فمنهم من يحك أنفه فى أنف صاحبه ومنهم من يحك رأسه فى رأس صاحبه ... وبالملاحظة نرى أن من يفعلون هذا هم المتأخرون من الشعوب الذين لم يهتدوا إلى القبل ... وهم بتقبيلهم أقرب إلى ما يصنعه الحيوان ... والإنسانية تتفتق عن الجديد كل يوم ... والذين رأوا القبل من هؤلاء المتأخرين مارسوها واطمأنوا إليها ... ولا تحصى أن